العرب
الجمعة 2019/08/02
السنة 41 العدد 11426

خبز وورد وسكر نبات: في فضائل أن يكون الناقد خائنا للعمل الفني

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

كان عليّ أن أقرأ مقالا لأحد الأصدقاء الفلسطينيين عن تجربته الأليمة في العيش في مخيم عين الحلوة في لبنان حتى أعثر على السبب الغامض الذي جعلني أعشق لوحة للفنان رونيه ماغريت بعنوان "العاشقان 1، رغم أنها ليست على الإطلاق من أجمل لوحاته، على الأقل بالنسبة لي. وقد أخذني التفكير في هذا الأمر إلى التأمل في معنى أن يطلق على المرء صفة "ناقد فني".

غالبا ما يُقصد بالناقد الفني البنّاء لنص نقدي وفق مقاييس علمية مُستقاة مباشرة من عالم الفن والتشكيل، وإن حصل وأخفق هذا الناقد في تفكيك معالم اللوحة الفنية عبر ردّها إلى أصولها التشكيلية وخلفيتها التاريخية، فذلك يعني أنه ليس بناقد فني جدي.

قد تكون في ذلك حقيقة ما؛ فالنقد الفني علم وصياغة نص نقدي مبني على حقائق. مهلا، حقائق؟ أية حقائق؟ تلك المُتعارف عليها والتي كُتبت في مئات المنشورات؟ أم تلك التي عرّفنا عليها الفنان مباشرة في مقابلة صحافية، أم ماذا؟ لاسيما في ضوء علمنا بكره الفنانين ضمنا أو علنا تعبير "المتعارف عليه" حتى وهم يشرعون في تفسير أعمالهم أمام المهتمين.

إن كانت قراءة أي عمل فني تقف عند حدود «الحقائق» فأغلب الظن أنها قراءة استهلاكية من شأنها، أحيانا كثيرة، حجب الرؤيا أو على الأقل إلحاق أذى بها

لعل أهم فنان على الإطلاق استطاع أن يضرب عرض الحائط بالنصوص الفنية المقفلة بالرغم من بساطة خطوطه وهدوء ألوانه ووضوح معالم أشكاله، هو ماغريت. ومثال لوحة "العاشقان 1" هو من أقوى الأمثلة، رجل وامرأة يلتف حول رأسيهما ووجهيهما المتقاربين قماش حاجب. أُطلق على هذه اللوحة "الحب السريالي". غموض يفسر غموضا.

العديد من الدراسات تقول إن الفارق ما بين النقد والانتقاد شاسع. النقد موضوعي والانتقاد شخصي حصيلة ضغينة أو ميول متصلة بناقد فني دون آخر. لكن عن أية موضوعية تتكلم تلك الدراسات؟ عن موضوعية الناقد أم الفنان؟

موضوعية الفنان غير مطروحة أساسا. كما يجدر اليوم أن أتأمل في وجه مهم من وجوه "الناقد الفني" بعد أن وجدت كيف أن قراءة شخصية غير موضوعية لمقال عام باستطاعتها أن تفسر ألق عمل فني، ظل غامضا لفترة طويلة، بغض النظر عن معايير فنية ثابتة قادر أن يذكرها كل عالم بـ"القوانين المرعية الإجراء" المذكورة باستفاضة في المطبوعات الأكاديمية حول الفن. وإن كانت قراءة أي عمل فني تقف عند حدود "الحقائق" فأغلب الظن أنها قراءة استهلاكية من شأنها، أحيانا كثيرة، حجب الرؤيا أو على الأقل إلحاق أذى بها.

كما ينمو الوحي الفني الشديد التعقيد في نفس الفنان كذلك ينمو نفس النقد الفني وحيدا وبغرائبية مضمونة. وفي أحيان كثيرة تومض في نفس الناقد أفكار تجاه أعمال تشكيلية لم تكن سابقا واضحة لديه حين يجد نفسه أمام موقف قد لا يمت إلى الفن بأية صلة. لا يقف الفنان أو الناقد الفني أمام لوحة إلاّ وهو مُشبع بمعرفته المصقولة بتجاربه الشخصية، والأهم من ذلك "المُشفّرة" بمُشاهداته اليومية المُتراكمة.

العمل الفني الغامض يحتاج من يخونه كي يكتسب أو ينقشع معناه. هكذا، وفي اللحظة التي مكنني فيها مضمون المقال المقروء من "خيانة" عمل ماغريت الذي يحمل عنوان "العاشقان 1" عبر عملية إسقاطي عليه مشاعر تجربة شخصية دفينة خرجت فجأة من "النسيان"، ووضح لديّ سر افتتاني بتلك اللوحة.

فقد تجسدت في لوحة ماغريت ذكرى خالد الشاب الفلسطيني المقاتل الذي كان يجيء مُلثما جدا إلى المبنى الذي كنا نسكنه خلال الحرب، قبل أن يعتاد علينا ويزيح لثامه أكثر فأكثر ليلة بعد ليلة.

بتنا أنا وخالد متقاربين ومتباعدين جدا كما في لوحة ماغريت، وكان الأمر "عاديا" بالنسبة لنا كما بالنسبة للعاشقين "الملثمين" في لوحة الفنان. وكانت كل اللحظات التي تشاركناها مخطوفة خطفا من ذاتنا "المُغتربة" ومن الناس المحيطين بنا على الدوام. تمرسنا في الملجأ حينا وعند صمت الشموع المسكوبة على أدراج المبنى في الطوابق السفلى حينا آخر في اختراع لغة مبطنة كنا نتناكف عبرها ونعبّر من خلالها عن عاطفتنا تجاه بعضنا البعض.

وعلى سبيل المثال عندما كان الجيران يصنعون القهوة كنت أضيف له وحده على طرف الصحن عدة حبات من سكر النبات، كنت اشتريها من دكانة قريبة خصيصا له مع علمي بأنه يشرب قهوته مرة. كان خالد يضحك ويلتهمها في لحظة حتى عندما صرت أزيد له تدريجيا حبات السكر. رأيت فيه صورة البطل النبيل والإنساني المؤمن بقضيته كما رأيت عبره الأمل في أن يعود الأمن، فقد كانت ترشح منه طمأنينة غريبة.

إن كانت لوحة ماغريت تعبّر عن فكرة الحب كحالة سريالية يكون فيها العشاق وحيدين دوما في تلاقيهم وغرباء عن بعضهم البعض، فخالد كان بالنسبة لي شخصا لا يُرى إلاّ في الليل ولا يظهر إلاّ مُلثما وعند اشتداد القصف. خالد لم يكن عاشقا عاديا. لم يكن إلاّ مقاتلا في ثياب مقاتل. وكل ما ينفي ذلك يهدّد وجوده بيننا. فكيف له إذًا أن يكون شخصا عاديا إن أشرقت الشمس وعادت الأحوال أقل قسوة؟

لم تكتب الحياة "العادية" والخارجة عن لثامه لخالد، فقد استشهد عند دخول الجيش الإسرائيلي بيروت. ثم تأكيدا على لا عاديتها انتشرت صوره على جدران الحي.

هو بات صورة وأنا أمسيت لا أكثر من صورة، من أمل في ذهنه المُغيّب قسرا. صوره تعود إلى ذاكرتي الآن لتؤكد لي بعد أكثر من 30 عاما أنه كان حقيقة وسيظل كما عرفته حقيقيا، ونبيلا وقويا وخالدا في سرياليته.

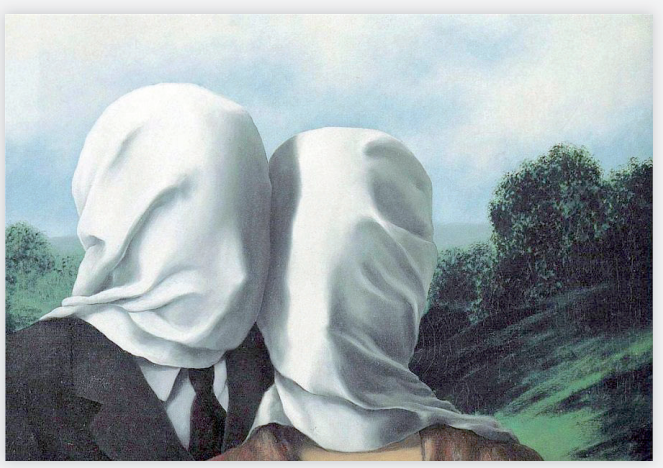

لوحة «الحب السريالي»... غموض يفسر غموضا

لوحة «الثلج» لفرانسوا دوبيني شاهدة على زمن الانطباعية

الانطباعية الفرنسية تعرض لوحاتها في الرباط

أيقونات تؤرخ لإبداعات مرتبطة بالجمال المغربي وانعكاسه على الانطباعيين

لحظة تعاون فني متميزة تلك التي جمعت متحف محمد السادس للفن المعاصر في العاصمة المغربية الرباط بنظيره متحف أورساي في العاصمة الفرنسية باريس، لحظة تحوّلت إلى معرض تشكيلي مفتوح وجعلت المهتمين بفن الرسم، متذوقين ومولعين، دارسين وباحثين، يتحدون جميعا وينسابون كقطرة صباغة من فرشاة فنان على قماش شُدَّ بعشق لتشكيل لوحة ستغدو مع مرور الزمن تحفة ذات تاريخ عريق.

يوسف حمادي
كاتب مغربي

الرباط - يُعدّ معرض "الألوان الانطباعية"، المقام حاليا في العاصمة المغربية الرباط، أوّل معرض يجلب روائع متحف أورساي الفرنسي الشهير إلى القارة الأفريقية، وأوّل معرض "انطباعي" في العالمين العربي والإسلامي، وأوّل معرض يعبر ضفة المتوسط من الشمال إلى الجنوب، ما يؤكّد أنه المعرض الحدث هذا العام بالمغرب والمنطقة عموما.

اللوحة التحفة

يضمّ معرض "الألوان الانطباعية"، الذي يحتضنه متحف محمد السادس للفن الحديث والمعاصر بالرباط في الفترة ما بين 9 أبريل الماضي و31 أغسطس الجاري، أروعَ اللّوحات الفنية لمتحف أورساي الفرنسي.

وهو فرصة فريدة بالنسبة إلى الزوّار المغاربة والأجانب للاطلاع على أكبر مجموعة من أعمال الرسامين الانطباعيين في العالم، والغوص في إحدى المراحل الزاهرة في تاريخ الفن، فترة شاهدة على ثورة فنية جريئة، قلبت أسس التشكيل الأكاديمي الغربي رأسا على عقب ومهّدت السبيل أمام الحداثة من دون أن تقطع صلتها بالتقاليد.

وهو أيضا معرض يطمح إلى مقاربة موضوع لا يحظى إلاّ نادرا بالدرس لدى المهتمين بـ"الحركة الانطباعية"، هو موضوع اللّون، ذلك أنّ مرحلة الانطباعيين قد صادفت فعلا لحظة تطوّر كبير في علم البصريات، وازدهار في علم الكيمياء الّذي ابتكر ألوانا جديدة، فتحت للفنانين مجالا لتمثّل غير مسبوق.

وقد نهل منه مونيه ورونوار وبيسارو وكايبوت وماني وسيزان وسيسلي وبيسارو وفانتان- لاتور وديلاكروا وفان غوخ.. وغيرهم.

وجاء المعرض ثمرة تعاون بين المؤسسة الوطنية للمتاحف بالمغرب ومتحف أورساي الفرنسي الذي ساهم بمعروضات فنية استثنائية، من خلال متتالية من القاعات تعالج كل واحدة منها لونا معينا من ألوان الانطباعيين المتوهجة.

وبدت لوحات المدرسة الانطباعية الفرنسية المعروضة حاليا ضمن معرض "الألوان الانطباعية"، وضمنها لوحة "الثلج" للفنان فرانسوا دوبيني ولوحة "أنجلينا" للفنان إدوارد مونيه، ولوحة "وليام سيسلي" للفنان بيير أوغست رونوار، بدت كلها أعمالا وتحفا بهية فخمة ذات هالة فنية ثرية وإن مضى على رسمها ما يربو عن القرنين من الزمن، لقد تم السفر بها من متحف أورساي الباريسي إلى الرباط بشراكة علمية مع المؤسسة المغربية للمتاحف ليسعد الجمهور بمشاهدتها عن قرب.

وفي تصريح خص به "العرب" أشاد مهدي قطبي، رئيس المؤسسة الوطنية للمتاحف في المغرب بالمعرض الفني "الألوان الانطباعية" المنظم حاليا بمتحف العاصمة الرباط، واصفا إياه بالمعرض "العربون" كنوع من التقدير الجيد الذي تتميز به العلاقات العميقة التي كانت تربط الفنانين الأوربيين المقيمين بفرنسا مع المغرب نهاية القرن التاسع عشر، ذلك الرابط الذي وصفه قطبي بقوله "هو رباط فرض نفسه كضرورة حضارية تستند إلى اعتبارات تاريخية مشتركة بين فرنسا والمغرب".

ويتجسد ذلك الارتباط المحكوم بظروف بيئية مغربية صرفة، والذي عاشه الفرنسيون فعليا إبان حمايتهم للمغرب، في لوحة "الثلج" للفنان الانطباعي فرانسوا دوبيني، اللوحة التحفة، التي جيء بها محمولة بعناية خاصة بلغت حد الدلال، لتجد مكانها الخاص ضمن بنات عصرها من اللوحات التي شملها معرض الألوان الانطباعية، ذاك المعرض المشروع الفني، المغربي/الفرنسي، الذي رأى النور بدعم من سيدة فرنسا الأولى بريجيت ماكرون، ولورانس دي كار رئيسة متحف أورساي في العاصمة باريس وافتتحته الأميرة حسناء شقيقة العاهل المغربي.

اللون سيد

في كلمتها عن المعرض أوضحت لورانس دي كار أنه تناول مواضيع نادرا ما تحظى بالدرس في حقل الاشتغال على الفنون الانطباعية، وهو موضوع اللون، معلقة أن زمن الانطباعيين يصادف لحظة يفتح فيها تقدم العلم البصري والكيميائي الذي يبتكر ألوانا جديدة أمام الفنانين، مجال تمثل غير مسبوق.

وذكّرت لورانس في كلمتها التي كتبتها تقديما لمعرض "الألوان الانطباعية"، والتي حصلت "العرب" على نسخة منها، بعدد من أسماء الفنانين الانطباعيين الذين طبعوا تاريخ الفن التشكيلي في فرنسا وكل أوروبا ببصمتهم الفنية المتميزة، كالفنانين مونيه ورونوار وبيسارو وكايبوت وغيرهم ممن نهلوا من تقنيات الأساليب الجديدة لعصرهم، رسما وتشكيلا، والدور الذي لعبوه في سياق تاريخ معين من الحداثة احتل فيه تحرير اللون مكانة مركزية.

لوحة «وليام سيسلي» في رحلة من شمال إلى جنوب المتوسط

«أنجلينا» لوحة لمونيه تعرض لأول مرة في أفريقيا

وبدوره يؤكد عبدالعزيز الإدريسي، مدير متحف محمد السادس للفن الحديث والمعاصر، أن لوحة "الثلج" التي رسمها الفنان فرانسوا دوبيني في العام 1873، هي لوحة زيتية على القماش، جيء بها محمولة وملفوفة بكل عناية من متحف أورساي الباريسي إلى معرض متحف الرباط لتشهد على زمن مغربي أثّر في الفنون العالمية، ضاربا مثلا على ذلك لوحة "عبور ممر نهري بالمغرب" للفنان أوجين دولاكروا، ولوحة "منظر من السطوح" للفنان كوستاف كايبوت، وغيرهما من اللوحات التي تؤرخ لعوالمها الإبداعية المرتبطة بالمجال البيئي الذي كانت للطبيعة المغربية ذكرى إبداع فني في إنتاج بعضها.